الأبنية الصحراوية في بادية الشام
دراسة في نظرية الوظيفة

دكتور

محمود ابراهيم حسين

كلية الآثار

جامعة القاهرة

١٩٣

تعتبر الأبنية الأموية التي اكتشفت في بادية الشام ، من أكثر الآثار الاسلامية التي أثارت نقاش كبير وجدل بين علماء الآثار الاسلامية ، ولقد اكتشفت هذه الأبنية في المنطقة الصحراوية التي تمتد جغرافياً من نهر الفرات في الشمال حتى البحر الأحمر في الجنوب[٢] ولقد لفت النظر إلى هذه المنطقة في بداية الأمر ، مجموعة من الرحالة الأوربيين في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد قام هؤلاء الرحالة بوصف هذه الأبنية الأثرية وكان هذا الوصف ضمن تقرير الرحلات التي قاموا بها ، ومن الملاحظ أن الوصف كان يعالج الشكل الخارجي لهذه الأبنية ، بالاضافة إلى وصف الزخارف الخارجية والداخلية ، ولم تتطرق هذه الأبحاث إلى دراسة الهدف من وجود هذه الأبنية والغرض من انشائها[٣] .

ومن أقدم أصحاب هذه الاكتشافات الباحث الرحالة الذي تخصص في الدراسات العربية المتعلقة بالقبائل الصحراوية Alois Musil ، وقد عثر موزل أثناء رحلته العلمية في بداية القرن التاسع عشر إلى الشرق من عمان على بناء من هذه الأبنية الصحراوية ، وكان هذا البناء مزخرفاً بالألوان المائية ، وكتب موزل عمل ضخم تحت عنوان « قصير عمرا »[٤] وقد أرخ موزل هذا البناء بالعصر الأموي[٥] ، وقد تلى هذا العمل مجموعة من الأبحاث والكتب التي أشارت إلى ظاهرة هذه الأبنية الصحراوية ، وأجمعوا جميعاً على نسبة عدد كبير منها إلى العصر الأموي . وعلى الرغم من أتفاق هؤلاء العلماء على تأريخ هذه الظاهرة المعمارية بالعصر الأموي إلا أنهم اختلفوا حول وظيفة هذه القصور وتفسير وجودها في الصحراء ، ففي الأبحاث الأولى وحتى الثلاثينات من هذا القرن كان الحديث يدور حول إستراحات أموية صحراوية مخصصة للمتعة واللهو ، وأشار هؤلاء إلى أن الخلفاء الأمويين بداة من عرب الجزيرة العربية من المناطق المنتشرة حول مكة والمدينة ، ومع أنهم يستمتعون بما في عاصمتهم دمشق من طرف ومباهج — إلا أنهم يحنون إلى قضاء فترات متقطعة في الصحراء التي نشأوا في ربوعها ، لكنهم بعد أن اعتادوا على الاقامة في منازل بدلاً من بيوت الشعر فانهم عملوا على انشاء هذه العمائر في أماكن مختلفة من صحراء الأردن وفي صحراء سوريا ، وفي هذه العمائر كان الواحد منهم يقضي بضعة أسابيع كل سنة ، مستمتعاً بما في البادية من وسائل اللهو كالصيد

والقنص ومباريات الفروسية ، كما أنهم كانوا يستمتعون بما توفره الحمامات من مسرات ، وبما يصاحب ذلك من متعة الغناء والرقص التى كانت شائعة فى تلك الأيام[٦] .

وبعد هذه المرحلة بدأ ظهور مجموعة من العلماء حاولت ايجاد مبررات اقتصادية لوجود هذه الأبنية الصحراوية . فقد ذكر هؤلاء أن الأبنية كانت مقار للمشرفين على الأراضى الزراعية المملوكة للحكام من بنى أمية[٧] .

وأستشهد هؤلاء أيضاً بأن بعض خلفاء بنى أميه وعلى رأسهم هشام بن عبد الملك كانوا يهتمون بحفر قنوات المياه ومدها فى الصحراء لرى الأراضى الزراعية[٨] .

وقد أجمع علماء الآثار على نسبة هذه الأبنية الصحراوية بصفة عامة إلى النصف الثانى من العصر الأموى أو إلى الفترة المروانية ، والحق أن هناك غموض حول هذه النقطة ، نحاول ايضاحه أيضاً فى هذا البحث ، ذلك أن الدولة الأموية قامت نتيجة لحماس القائمين عليها وفى مراحل تأسيس الدول لا يهتم الرعيل الأول بمسائل اللهو أو المتع المختلفة بقدر اهتمامه بتأمين الدولة . فتأمين الدولة الوليده أهم من نظر هؤلاء من اللهو أو حتى المشاريع الاقتصادية التى تتمثل فى اضافة مساحات زراعية جديدة لرقعة الأراضى الزراعية فى الدولة .

وأما الفترة الثانية من عمر الدولة والمعروفة باسم المارونية ، أى ما بعد ٧٥٠ م والتى ذكر المؤرخون أن الأمويين فقدوا حماسهم السياسى الذى صحب انشاء الدولة واختفاء جيل المؤسسين ، وظهور طائفة من الخلفاء الأمويين تميزت بعدم الاكتراث والاتجاه إلى حياة اللهو والمتع وهو الأمر الذى أدى إلى نهاية وانهيار الدولة فى نظر أصحاب هذا الرأى[٩] .

والرد على هذا الرأى يتطلب دراسة للفترة الثانية عمر الدولة الأموية ، دراسة تحليلية للظواهر السياسية والتاريخية التى صاحبت هذه الدولة ، والواقع أن النصف الثانى من عمر الدولة قد شهد حماس شديد من قبل القائمين عليها للقضاء على الفتن الداخلية والثورات التى ظهرت بناحية فى كل أنحاء الدولة ،

مع استمرار السعي إلى إرسال الجيوش لفتح ونشر دين الله . ففي عهد الوليد تم فتح بلاد ما وراء النهر ، كما ظهر في عصره ثلاثة من أعظم قواد الجيوش وهم : قتيبه بن مسلم الباهلي ، ومحمد بن القاسم بن محمد الثقفي ، وموسى بن نصير . كما أعقب فتح بلاد ما وراء النهر محاوله فتح بلاد الصين وبلاد السند وبلاد الأندلس ، ولابد من الاشارة هنا إلى أن الخلفاء في المرحلة الثانية الذين ذكر عنهم الميل إلى اللهو والقصف والمتع لم يستمر حكمهم طويلاً ، فعلى سبيل المثال كان أشهر هؤلاء يزيد بن عبد الملك الذي حكم من ٧٢٠ إلى ٧٢٤ م وقد جاء حكمه بعد عمر بن عبد العزيز ، وقيل أن يزيد هذا كان له جاريتين هما سلامه والثانية حبابه (بضم الحاء) ويقال أن حبابه أعتلت وماتت فظل يزيد إلى جوارها أياماً لا يدفنها حزناً عليها فنصحه من حوله بدفنها لأنه الخليفة وعليه أن يتصرف وفقاً لمنصبه ، فدفنها ويقال وأنه قد حزن عليها حزناً شديداً حتى مات بعدها بأيام . أما الشخصية الثانية التي أشتهرت باللهو والخلاعة والمجون ، كانت شخصية الوليد بن يزيد بن عبد الملك والذي تولى الخلافة سنه وشهرين قتل بعدها بقرية من قرى دمشق على يد يزيد بن الوليد .

والملاحظ أن يزيد بن عبد الملك تولى بعد عمر بن عبد العزيز ، وأن الوليد تولى بعد هشام بن عبد الملك ، ومن هنا فإن المؤرخين أشاعوا عن يزيد والوليد ما أشاعوه بعد أن قارنوا بين عصورهم وعصور عمر بن عبد العزيز بما اشتهر عنه من عدل وسلام ، كما أشتهر هشام برجاحة العقل والعفه والتدبير وحسن السياسة . ومن هنا يمكن القول أن عصور اليزيد والوليد لم تكن بنفس روح عصور عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك .

أما فترة آخر خلفاء بني أميه وهو مروان بن محمد فقد كانت فترة كفاح وجهاد من أجل القضاء على الفتن والثورات الداخلية ، فقد كان مروان هذا والي على الجزيرة وأرمينيه ثم سار بجنوده يريد الشام بعد أن دب الاضطراب في بيوت الخلافة على أثر وفاة يزيد بن الوليد وتولى أخيه ابراهيم ، واستطاع مروان بن محمد الذي اتصف بالشجاعة والحنكة الحربية أن يدخل الشام وأن يتغلب على ابراهيم بن الوليد ، وبيع مروان بالخلافة ، ولم يلبث أن خرج عليه أهل حمص بزعامة ثابت بن نعيم وكذلك أهل تدمر برئاسة الاصبغ بن ذؤاله

الكلبي غير أن مروان استطاع التغلب عليهم وهزمهم شر هزيمة ، كما ثار عليه أيضا يزيد بن خالد القسري وانضمت إليه الجيوش التي لكن مروان تمكن من هزيمته وقتله وبالتالي خلصت دمشق ولم يلبث أن خرج عليه أهل فلسطين ، ولكنه أرسل إليهم الجيوش وقضى عليهم وكانت هذه نهاية مروان بن محمد آخر خلفائهم وهي كما رأينا نهاية كئيبة معارك وفتن زاد منها تركز القبائل اليمنية في بلاد الشام الأمر الذي جعل مروان يتخذ بلاد الجزيرة عاصمة له ومقر للحكم بدلاً منها ، ولم يكن الحال في بلاد العراق بأحسن حالاً فقد كانت ميداناً لفتن الخوارج الذين استولت مجموعة منهم على بلاد الحجاز واليمن بقيادة المختار ابن ابي عبيدة ، وانشغل آخر خلفاء بني أمية بما يجري في البلاد من الفتن حتى لقب بالحمار لأنه كان لا يهدأ له لبد في محاربة الخارجين عليه ، فكان يصل السير بالسير ويصبر على مكائد الحرب[١٠] .

ومن العرض السابق يتضح لنا أن المرحلة الثانية من عمر الدولة الأموية كانت مرحلة كفاح وانشغال كامل للمحافظة على الدولة وليس مرحلة فقدان الحماس كما ذكر بعض العلماء[١١] .

ولما لفتت هذه الظاهرة نظر العالم الألماني E. Gaube ، فقرر البحث عن تفسيرات جديدة لوظيفة هذه القصور الصحراوية وحاول جاوبه الاعتماد على تاريخ المنطقة كوسيلة للوصول إلى اجابة عن سؤاله : لماذا وجدت هذه القصور ؟ وما هي وظيفتها ؟ إلا أن الملاحظ على نظرية جاوبه المبالغة الشديدة في الربط بين العلاقات البيزنطية والقبائل العربية على حدودها وخاصة الغساسنة[١٢] . وحاول أن يجعل من تلك العلاقة نموذج للعلاقة بين الدولة الأموية وحلفائها من القبائل العربية ، ونسي أن الدولة الأموية دولة عربية خصا ودماً ومن هنا كان أمر طبيعي أن تحصر هذه الدولة وظائفها العليا في يد العرب ، وذلك لأن العرب في تلك الفترة كانوا يمثلون حتى الدعامة الأساسية للدولة سواء من الناحية العسكرية أو الادارية . فالأمر هنا لا يتعلق بتقييد نظام الحكم البريطاني ، بقدر ما يتعلق باستراتيجية الدولة نفسها ورؤيتها للأمور ، حقيقة أعتمد أعداء الدولة الأموية على مخطط الله ن على حكم الأمويين نتيجة لتساهلهم في تقريب العرب وتفضيلهم الا انا لا نعتقد أن الأمور كانت سوف

تستمر على نفس المنوال إذا ما طال العمر بالدولة الأموية . تلك بعض الأمور التي قامت على نظرية جاوبه أخذها بعين الاعتبار . (شكل (١)) .

وبعد أن عرضنا مجموعة النظريات التي قيلت في تفسير ظاهرة القصور الصحراوية يجب وقبل الوصول إلى نتيجة في هذا الموضوع أن نشير إلى مجموعة من الملاحظات :

(١) أن القول بأن هذه الأبنية الصحراوية ترجع إلى الفترة الأموية هو أمر أكدته طبيعة هذه المباني وطرازها المعماري ، ولذا فإن محاولة إرجاع هذه الأبنية لفترات ما قبل الإسلام من قبل بعض العلماء الغربيين هو في الواقع بعيد عن الحقيقة لأن التشابه في طراز هذه الأبنية وبعض الآثار من عصور ما قبل الإسلام ، إنما يبرره طبيعة الطراز المعماري السائد والذي استمر فترة طويلة دون تغير بالإضافة إلى عامل البيئة والمادة الخام وهي عوامل لا تتغير بتغير نظام الحكم أو شخصية الحاكمين .

(٢) أن منطقة بادية الشام كانت تمثل منطقة تجميع للقبائل العربية التي قامت بالفتوحات وكانت المنطقة ملائمة جداً لهذه الوظيفة نظراً لأن أكثر المناطق قرباً من العاصمة المركزية للدولة (دمشق) وكذلك كانت أنسب هذه المناطق لطبيعة هذه القبائل وقربها من البيئة الأصلية لها في قلب الجزيرة العربية ، ذلك لأن التقسيمات الجغرافية لبلاد الشام تؤكد عدم وجود بديل لهذه المنطقة ، ذلك أن مناطق شاطىء البحر كانت عبارة عن موانئ وكانت أيضاً مناطق استقرار للسكان الأصليين لبلاد الشام ، وكان مناخها لا يناسب تواجد القبائل العربية الوافدة من عمق الجزيرة العربية ، بالإضافة إلى أن مساحة الشاطىء كانت ضيقة ولا تسمح بتواجد كثيف لهذه القبائل ، وإلى الشرق من الشريط الساحلي والمدن الساحلية نجد مناطق مرتفعة جبلية وهي مناطق تزرع اعتماداً على الأمطار ، بالإضافة إلى عدم اقبال العرب على حرفة الزراعة في تلك الفترات المبكرة ، كانت أيضاً المناطق الجبلية غير مناسبة لتواجد كثيف ومنظم للجيوش العربية ، وبين هذه المساحة الجغرافية سهل ضيق صالح للزراعة ، يوجد به أربعة مدن رئيسية كبيرة هي حلب وحماه وحمص

ودمشق بالاضافة إلى عدد كبير من القرى والمدن الصغيرة ، والملاحظ أن هذا السهل الضيق بمدنه وقراه كان يحوى كثافة سكانية عالية ، لا تتيح تواجد هذه القبائل المحاربة ، كما أن الطبيعة الرخوه للأراضى الزراعية لا تناسب تحركات هذه القبائل مع الدواب المصاحبة لها ، كما أن تواجد هذه القبائل العربية فى المنطقة سوف يعوق عملية زراعة هذه الأرض التى كانت تمثل خزن رئيسى للحبوب للعاصمة المركزية للدولة .

وهكذا يبقى فى إتجاه الشرق منطقة الصحراء المتاخمة للمنطقة الزراعية ، وهى أقرب منطقة صالحة للاقامة بالنسبة لهذه القبائل العربية فهى قريبة من مناطق زراعية ، أى أنها مناطق صالحة للرعى « بادية » وبذلك يتوفر قدر من الحشائش والأعشاب تعيش عليها الدواب المصاحبة لهذه القبائل ، وكلما ازداد عدد هذه القبائل ، وجدت لها أماكن فى الامتداد الصحراوى للبادية ، وذلك لكون مناطق الصحراء مفتوحة ، وشاسعة وبالتالى كانت تعتبر حدود مفتوحة ومتحركة فى مقابل الحدود الشابه التى تمثل فى البحر الأبيض المتوسط وسلاسل الجبال التالية له . (شكل (٢)) .

ومما سبق يتضح أن تواجد القبائل العربية فى بادية الشام هو ضرورة جغرافية هامة كما أن نزوح هذه القبائل من قلب الجزيرة العربية نحو الشمال هو ضرورة اقتصادية استراتيجية فرضتها سياسة الفتوحات العربية . كما أن دخول القبائل العربية إلى المدن أو السواحل كان سوف يحدث خلل فى البنيان السكانى داخل هذه البلاد فزيادة أعداد البدو كان سوف يخل بالتوازن السكانى للفلاحين وسكان المدن الساحلية ، وقد يتسبب هذا فى مشاكل واضطرابات داخلية كانت الدولة تحرص على تجنبها فى مراحلها الأولى . ولكن لم يمنع هذا من دخول أعداد قليلة من القبائل العربية إلى مناطق الجبال السورية والمرتفعات اللبنانية وكان هذا التواجد بغرض الاستيطان .

(٣) أن الفترة الزمنية التى تواجدت فيها القبائل العربية فى بادية الشام كانت طويلة نسبياً وبالتالى فقد سعى حكام بنى أميه إلى ايجاد مصادر دائمة

لمياه الشرب للانسان والدواب ومن هنا فمن المحتمل اعادة حفر آبار رومانية قديمة كانت موجودة بالمنطقة ذلك أن الرومان أدركوا أهمية المنطقة خاصة فى مواجهة أطماع الدولة الساسانية مما أوجب انشاء شبكة من الطرق لتحرك الجيوش فى قلب الصحراء بالاضافة إلى حفر الآبار اللازمة على هذه الطرق وكانت هذه الآبار مجاورة لحصون صغيرة انحصرت وظائفها فى الأنذار المبكر فى حالة وجود خطر على الدولة . وقد أعادت القبائل العربية المحاربة استخدام هذه الطرق وتركزت حول مناطق الآبار التى اعتنى بها من جديد حكام بنى أمية .

(٤) ان اقامة القبائل العربية فى بادية الشام ترتب عليه قيام نوعاً من التبادل التجارى بين المناطق الزراعية وبين مناطق تواجد هذه القبائل البدوية ، ويبدو أن هذه القبائل قد احتاجت إلى الحبوب واستطاعت أن تمد المناطق الزراعية بمنتجات الألبان والأغنام والدواب ، ومن هنا بنيت مخازن لهذه الحبوب فى المناطق الصحراوية ، كانت تخزن بها الحبوب لاستخراجها لمدة طويلة ، يدل على ذلك وجود اطلال لمخازن الحبوب فى بعض هذه الأبنية الصحراوية .

(٥) كانت القبائل العربية الوافدة تعتبر قوات مركزية يستطيع الخليفة توجيهها إلى مناطق الاضطرابات فى داخل الدولة ومناطق الفتوحات على حدود الدولة ومن ثم كان من المهم ابقاء أهل القبائل فى حالة استعداد دائم للحرب عن طريق قيامها بالتدريبات العسكرية اللازمة لها ولدوابها ، وكانت مناطق بادية الشام باتساعها وترامى أطرافها من أنسب المناطق لهذه التدريبات ، ولابد وأن الخليفة كان يحضر بعضاً من هذه التدريبات العسكرية للاطمئنان على جيوشه ودرجة استعدادهم ومن ثم كان يحتاج فى اقامته إلى مكان يستريح به ليلتقى فيه بقواد الجيوش ويناقش معهم الخطط العسكرية ، ومن هنا فإن وجود بقايا التحصينات الرومانية ربما يكون قد أوصى لبعض من هؤلاء الخلفاء بناء أماكن وأبنية صحراوية مزوده بمصادر المياه وبوسائل المعيشة الأخرى كمخازن الحبوب أو الحمامات وكذلك المساجد .

(٦) كان الصراع بين القبائل العربية المعروف بأسم صراع القيسية واليمنية سبباً في إزدياد تواجد هذه القبائل في بادية الشام ، وكان ميل أحد حكام بني أمية إلى قبيله من الاثنين سبباً في إزدياد تواجدها حتى يقوم باستخدام قواتها وقت الحاجة إليها .

(٧) ان عدم رضاء بعض الأطراف في قلب الجزيرة العربية وعلى وجه التحديد في منطقة الحجاز ، عن الحكم الأموى جعل من تواجد القبائل العربية الموالية للأمويين في منطقة استراتيجية لا غنى عنها ، للفصل بين مناطق الاضطرابات وبين عاصمة الدولة ومركزها الرئيسى .

(٨) يبدو أن تواجد القبائل العربية بشكل كثيف في بادية الشام لوجد الحاجة إلى بعض السكان المحليين وخاصة من الصناع والحرفيين ، ولذا فمن الملاحظ أن معظم النقوش التي عثر عليها كانت مكتوبة باليونانية بالاضافة إلى العربية وكذلك بالكتابات السورية المحلية وخاصة الآرامية التي كانت تعتبر من أبرز اللغات المستخدمة في هذه المناطق والتي يبدو أنها كانت مفهومه من العرب والسريان ، كما أن السوريين كانوا بصفة عامة موضع ثقة من قبل حكام بني أميه ، نظراً لأنهم كانوا القوة الأولى التي اعتمد الأمويون عليها في تأسيس دولتهم ومن هنا كان التداخل الحضارى بين مجموعات السكان المحليين وبين القبائل البدوية الموجودة . في أماكنها منذ فترات ما قبل الاسلام والتي كانت تمتد جغرافياً من الفرات حتى البحر الأحمر ــ أمر منطقى وقابل للتصديق ، وبالتالى من الممكن أن يترك السكان المحليين أثر على نمط الحياة البدوية ويضيفوا إليها بعض الأنماط البسيطة من العماره .

التصميم المعمارى للأبنية الصحراوية فى العصر الأموى

عثر فى منطقة بادية الشام على العديد من النقوش التى تتعلق بأبنية صحراوية خاصة بزعماء القبائل العربية التى كانت تعيش فى هذه المنطقة ، ويبدو أن هذه القبائل كانت ترتبط فيما بينها بروابط متنوعة ، وكان لزعماء هذه القبائل مقار ، يتواجدون فيها يتباحثوا فى الأمور الهامة ، ويبدو أن هذه المبانى كانت تشبه إلى حد كبير قصور حكام المقاطعات الأوربية[١٣] ، فى القرون الوسطى . ففى الرصافة على سبيل المثال عثر على مبنى له مسقط مربع فى أطراف المبنى وفى داخل الشرقيه يوجد نص كتابى يقرأ : الحياة الطويلة للمنذر[١٤] . وكان يعتقد أن المبنى عبارة عن كنيسة الا أن وجود اسم المنذر وهو حاكم غسانى بالاضافة إلى منطوق النص لا يناسب مطلقاً وظيفة المبنى ككنيسة .

وربما كان هذا المبنى قصراً صحراوياً للمنذر ، خاصة وأن سوفاجيه أثبت أن المستط الأفقى لهذا المبنى يتشابه مع مبانى رومانيه سوريه تستخدم كقاعات استقبال ، ويبدو أن المنطقة التى تشبه الشرقية كانت تخصص لجلوس الزوار[١٥] ، وقد ذكر T. Nöldeke ، أن المنذر قد استقبل مبعوث القيصر جستنيان سنة ١٥٧٥ فى الرصافة[١٦] ، ويبدو هذا المبنى من الخارج كالقلعة ، واما غرفة فكنها تقع حول الصحن الداخلى .

ويتشابه هذا المبنى مع مبنى آخر يقع فى قلب الصحراء محاط بسور ، ويبدو أن تاريخ بنائه يعود إلى القرن السادس الميلادى[١٧] ، والمبنى عبارة عن مساحة مربعة ٦٠ × ٦٠ م وتتوسطه بوابه فى المنتصف ويتوسط هذا المبنى صحن مربع ، تطل عليه غرف المبنى ، والملاحظ أن تصميم هذا المبنى يتشابه مع الخيمات البدوية التى تحولت إلى مبانى حجرية ، حيث كانت هذه القبائل تترك مكاناً فسيحاً فى المنتصف للاحتفالات ، ويذكرنا هذا بنوعية المبانى التى قام السلاجقة ببنائها بعد أن أصبح لهم مدناً ، فقد كانت هذه المبانى السلجوقية صورة من خيمات البدو السلاجقة قبل دخولهم إلى حياة المدن[١٨] .

وإذا تركنا مجموعة الأبنية الصحراوية التي ترجع إلى فترة ما قبل الاسلام ، إلى الأبنية التي وصلتنا من فترة الأموية . من أهم هذه الأبنية بناء ذو حجم صغير عبارة عن مجموعة سكنية حصينة متصلة بغرف استقبال كلها تدور حول صحن يتوسط المبنى وتنسب هذا المبنى إلى الوليد الأول ، والوليد هذا كانت أمه قيسية[١٩] ، وبذا فإن المبان التي قام ببنائها الوليد تركزت في المناطق التي سكنتها القبائل القيسية[٢٠]

والمبنى الثاني الذي ينسب إلى العصر الأموي هو قصير عمراً ، وهو يتألف من تصميم بسيط عبارة عن حمام وقاعة استقبال وبه بئر وخزان للمياه ، والملفت للنظر في تصميم هذا المبنى هو مجموعات الرسوم المائية وخاصة الصور التي تمثل ملوك الأرض ، والملاحظ في تصميم المبنى تشابه مع المبان السابقة وخاصة قاعات الاستقبال الخاصة بالمنذر في الرصافة على مسافة غير بعيدة من قصير عمرا يقع قصر الخرانه[٢١] ، وهي تمثل من حيث التصميم طرازا ثانيا يتألف من مجموعة من الدور السكنية يؤلف كل خمس غرف منها مجموعة واحدة كما يلاحظ أن المبنى هنا يتألف من طابقين وليس طابق واحد كما هو الحال بالنسبة لقصير عمرا[٢٢] . لوحة ٩ شكل (١٠)

ويتشابه المبنى المعروف بأسم حمام الصراخ من ناحية التصميم قصير عمراً : فهو يتألف من قسمين هما قاعة الاستقبال والحمام ، وقد قام علماء الآثار اعتماداً على هذا التشابه بتأريخ المبنى بين ٧٢٥ ــ ٧٣٠ م[٢٣] . لوحة ٧ ، ٨ شكل (٧) .

أما المبنى الموجود فوق جبل « اسيس » فانه يقع إلى جوار مجموعة من الأبنية التي ترجع إلى عصور ما قبل الاسلام . وتصميم المبنى عبارة عن صحن تحيط به مجموعة من الغرف المنفردة ، ويلاحظ في تصميمه تكرار ظاهرة الفناء المأخوذ عن المساحة الخالية الموجودة في وسط مخيمات البدو ، والمبنى هنا يتألف من طابقين[٢٤] (شكل (٨)) .

أما فيما يتعلق بالمبنى المعروف بأسم قصر المشتى ، فنجد أن تصميمه مستطيل ومساحته من الداخل نحو ١٤٤ مترا مربعا ، وجوانبه الخارجية

تكتنفها أبراج نصف دائرية ، ويتوسط المدخل واجهه المبنى الجنوبية[٢٥] ، ويبدو أن المبنى لم يكتمل بنائه ، ويلاحظ أن المبنى من الخارج يحوى زخارف بيزنطيه وهلينيه وساسانيه كلها محفوره على الحجر الجيرى[٢٦] . (لوحة ٤ شكل (٥)) ويتشابه مع البناء السابق مبنى آخر يقع على بعد نحو ٦٠ كم جنوب شرق قصر المشتى ويعرف بأسم قصر الطوبه . وتصميم المبنى مستطيل طوله ١٤٠ متراً ، وعرضه ٧٣ متراً ، وفى كل زاوية من زواياه الأربع برج مستدير وهناك سبعة أبراج فى الجدار الجنوبى وبصفة عامة فإنه شديد الشبه بقصر المشتى ولا سيما من حيث البروج وسقوف الأبنية ومواد البناء والتقاسيم والزخارف[٢٧] .

ومن خلال ما سبق نستطيع أن نخرج بالنتائج الآتية :

(١) أن معظم المبانى التى عثر عليها كانت تقع على حافة الصحراء أى فى منطقة البادية وفى إتجاه الجنوب أى نحو عمق الجزيرة العربية . أنظر خريطة (٣) .

(٢) تعد أسماء هذه القصور من العناصر التى لم يهتم بها من كتبوا حول موضوع القصور الأموية وهى كلها أسماء ليست لها علاقة بأصحاب الأبنية بقدر ما لعبت الصدفة عاملاً كبيراً فى شيوعها .

فعلى سبيل المثال نجد أن تشييد قصر الطوبة من الطوب جعل السكان يعرفونه بهذا الاسم ، وأن قصير عمرا سمى بإسم الشخص العربى الذى لفت نظر موزل إلى وجود البناء ، وكلمة قصير تعنى البناء ذو الطابق الواحد ، وقصر المشتى هكذا نظرا لأن الرعاة فى هذه المناطق كانوا يتركون مواشيهم وأغنامهم ترعى فى منطقة هذا القصر فى فصل الشتاء لأن موسم الأمطار يتخلف عنه فى منطقة القصر أعشاب وحشائش تسمح بالرعى .

أما المبنى المعروف بأسم حمام الصراخ فهى منطقة غير مأهولة بالسكان يتردد فيها الصوت بقوة مما جعل السكان يسمون المبنى بأسم حمام الصراخ ، أما قصرى الحير ، فسمى هكذا نظراً لأن المناطق المحيطة

بهما بها أعداد كبيرة من الحيوانات ومن هنا أطلق أهالى المنطقة اسم الحير ، أى مكان تجمع الحيوانات وأما قصر الخرانة فسمى هكذا أيضا من قبل سكان المنطقة نظرا لشدة حرارة الجو بالقرب من هذا القصر ، أما خربة المنيه وخربة الفجر فكلمة خربة كناية عن المكان المبنى الصغير قد نسب أهالى المنطقة المكان إلى أقرب قرية منه . (لوحات ٥ ، ٦) .

أما قصر الحلابات ، فنظرا لوجود مراعى كثيرة فى المنطقة توفرت فيها الأغنام فقد أطلق عليها السكان اسم « الحلابات » . وهكذا كانت كل الأسماء التى عرفت بها هذه الأبنية حديثة عليها قام بأطلاقها السكان فى عصور أكتشاف هذه الأبنية . (لوحة ١ ، ٢) .

(٣) يلاحظ أن معظم المبانى الصحراوية كانت تقع بالقرب من مصادر للمياه حتى الآن فعلى سبيل المثال كشفت البعثات الأثرية عن آبار للمياه وخزانات بالقرب من المبنى الرئيسى لقصير عمرا[٢٨] . كما أن منطقة قصر الأزرق عبارة عن واحة صحراوية بها العديد من البرك والبحيرات عند التقاء الحدود الأردنية السعودية[٢٩] (وادى السرحان) .

كما أن منطقة قصر المؤقر بها بركة كبيرة للمياه[٣٠] . أما قصرى الطوبة والمشتى فكانا إلى جوار مجموعة من الأبار ، بالاضافة إلى بركة زيزياء التى يعتقد أنها كانت المصدر الرئيسى للمياه بالنسبة لسكان قصر المشتى[٣١] ، كما أن مصادر مياه قصر الحلابات فقد كانت تتألف من عدد من الأبار كبيرة وصغيرة ، وقد تم اكتشاف منطقة زراعية كانت تروى بنظام متطور للرى من أقنية وسدود تتحكم فى توزيع المياه التى كانت تتجمع من التلال المحيطة بالمنطقة[٣٢] .

(٤) يلاحظ أن المبانى الصحراوية التى تنسب إلى الوليد الأول قريبة الشبه من حيث التصميم ، من المبانى الصحراوية التى ترجع إلى فترة ما قبل الاسلام وربما يرجع هذا إلى أن البيئة الصحراوية تفرض نمط معين من البناء على سكانها ، كما أن طبيعة المادة الخام المتوفرة فى هذه البيئة تفرض استعمالها .

(٥) اختلفت تصميمات الأبنية التى شيدت فى عصر هشام الثانى عن الأبنية السابقة من عصور الوليد الأول ، فقد كان هشام الثانى نادر الاستقرار فى عاصمته دمشق بل كان دائم التنقل بين قصر الرصافة وقصر الحير الشرقى ، والملاحظ أن قصر الحير كان يتصل بواحة قريبة بواسطة قناه للمياه يبلغ طولها نحو عشرة كيلو متر ، ومن هنا جاء الاعتقاد بأن هشام بن عبد الملك كان يقوم باصلاح الأراضى الزراعية عن طريق حفر قنوات للمياه .

(٦) يعتبر قصر الأخيضر استمرار لفكرة القصور الصحراوية ولكن حسب النموذج الايرانى فى البناء فالمبنى عبارة عن مجموعة متكاملة من الأبنية . أنظر أشكال (٦ ، ٨ ، ٩) .

(٧) أن الأراء التى قيلت من قبل من قاموا بدراسة هذا الموضوع وخاصة فيما يتعلق بتفسير وظيفة هذه القصور وأسباب بنائها ، لم نستطع الاجابة عن هذا السؤال وانحصرت تفسيراتهم على أن هذه الأبنية كانت للهو والمتعة[٣٣] ، بل ذهب البعض الآخر إلى أن هذه الأبنية كانت عبارة عن مقار لشيوخ القبائل[٣٤] ، أو أنها كانت مركزاً للمشرفين على استصلاح الأراضى الزراعية[٣٥] .

فالحقيقة أن تفسير وظيفة هذه القصور تجمع فيما بينها كل الآراء السابقة ونلخص رأينا فى هذا الموضوع فيما يلى :

أن هذه الأبنية كانت محطات صحراوية على مسافات متباعدة ، والمتطلع لخريطة تواجد هذه الأبنية يدرك تماماً أنها مراكز مزودة بوسائل المعيشة من مياه للانسان والدواب ، وهى مختلفة الأحجام متشابهة التصميم تبعاً لأهمية المناطق الموجودة بها بالنسبة للطرق الصحراوية ، وبطبيعة الحال كانت القبائل القريبة من هذه الأبنية الصحراويةن تعنى أمام خلفاء بنى أميه عن حراسة هذه الأماكن والعناية بها ، وكان أمر طبيعى أن يكون هناك استقرار لهذه القبائل حول هذه المراكز لحماية الطريق والمسافرين عليه ، والممكن زراعة الأراضى إذا ما كانت صالحة

للزراعة ويبدو أن هذه المناطق كانت تخدم الحجاج فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة ، وخاصة الحجاج . عن طريق الحج الشامى والعراقى . ولا يعنى استخدام هذه الأبنية لخدمة الحجاج أى نفى كونها صالحة كأماكن لاجتماعات الخلفاء مع زعماء القبائل أو قواد الجيوش ولا يتعارض ذلك مع قيام القبائل الموالية للأمويين بحماية حدود الدولة أو الاشتراك فى الفتوحات أو الصراعات العسكرية فى داخل الدولة أو قمع الاضطرابات فيها ، ولا يتعارض وجود تصاوير مختلفة تغطى السقف والجدران فى قصير عمرا ذلك لأن هذه الأبنية قد تمت على يد صناع محليين ولذا غلب على أسلوبهم الطابع الهلنستى سواء فى طريقة البناء أو طريقة الزخرفة . وتذكرنا هذه الأبنية بصفة عامة وخاصة فى ارتباطها بمصدر للمياه بمحطات الحجاج على طريق الحج المصرى والتى تمتد على طريق الساحل السعودى إلى الحجاز .

هوامش البحث

(١) استعملنا لفظ الأبنية الصحراوية على اعتبار أن لفظ القصور الصحراوية لا ينطبق على كل هذه الأبنية .

(٢) انظر خريطة رقم ٣ تبين مواقع هذه الأبنية الأثرية .

(٣) من هذه الأسماء :

F.J. Bliss, Narrative of an Expeditionof Moab and Gilead, Pefos 1895, S. 229 - 234.

Merrilu, East of the Jordan, London, 1881.

B. Tristan, the Land of Moab, London, 1873.

(٤) يعتبر من أهم الأبنية الأثرية التي أفردت لها دراسات خاصة بها . أنظر :

A. Musil, K useiyr Amra, Wien 1907.

A. Musil, Palmyrena (American Geographical Society, Oriental Explorations and Studies, No. 4, New York, 1928, SS. 277 - 297.

A. Musil, Op. Cit., S. 134.

(٥) E. Herzfeld, Die Gesesis der islamischen kunst und das Mshatta proplem, Der Islam 1 (1910), S. 27.

(٦) H. Lammens, La Badiya et la Mira Sous les Omaiyades, MFOB 4 1910, P. 91

K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture 1, Umayyads, Oxford. 1969.

(٧) J. Sauvaget, Chateaux Umayyades der Syrie REI 35, 1967, P. 38.

Wellhausen, Das arabisene Reich und sein Sturz, Berlin, 1980, P. 207

(٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، لبدن ١٩٦٦ ، ص ١٨٠ .

(٩) كتب موزيل في كتابه السابق الاشارة إليه عن حياة الوليد الثاني في الصحراء واعتمد موزيل على كتاب الأغاني للاصفهاني حول مجالس الغناء والطرب التي كانت تقام في الصحراء .

(١٠) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج ١ ص ٣٣٥ .
المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٩٤ .
الطبري ، ج ٨ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(١١) J. Wellhausen, Op. Cit., S. 193.

(١٢) H. Gaube, Die Syrischen Wustenschlösser, S. 205.

(١٣) انظر لوحة رقم ١ .

(١٤) F. Sarre und E. Herzfeld, Archeologische, Reise in Euphrat - und Tigris Gebiet, II, Berlin 1920, Abb. 156.

(١٥) J. Sauvaget, Ghassanides, P. 117.

(١٦) T. Nöldeke, Fürsten, (Anm ! 16.), S. 24.

(١٧) H. Gaube, Op. Cit., S. 196.

(١٨) محمد محمود أدريس ، رسوم السلاجقة وتنظيمه الاجتماعية ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

تمارا رايس ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص ١١٦ .

(١٩) H. Gaube, An Examination of the Ruinsof Qasr Burqua, (A.D.A.J.) P. 19.

(٢٠) J. Wellhausen, Op. Cit., S. 141.

(٢١) لانكستر هاردنج ، آثار الأردن ، ص ٢٠٠ .

(٢٢) انظر لوحة رقم H. Gaube, Op. Cit., S. 204.

(٢٣) محمود العايدى ، آثار الأردن وفلسطين ، ص ٢٠٩ .

كمال الدين سامح ، العمارة فى صدر الإسلام ، ص ٤ .

(٢٤) محمود العايدى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢٥) المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ — انظر لوحة ٤ شكل ٥ بالبحث .

(٢٦) لانكستر هاردنج ، المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

(٢٧) كمال الدين سامح ، المرجع السابق ، ص ٤٧ — انظر شكل ٤ بالبحث

(٢٨) لانكستر هاردنج ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .

محمود العايدى ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٢٩) محمود العايدى ، المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٣٠) المرجع نفسه ، ص ٢١٧ .

(٣١) المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ .

(٣٢) لانكستر هاردنج ، المرجع السابق ، ص ١٩١

(٣٣) يعتبر هذا الرأى من غالبية علماء الآثار الذين كتبوا فى هذا الموضوع

(٣٤) انظر : محمود ابراهيم حسين ، نظرية جديدة فى نشأة ووظيفة القصور الأموية ، الرياض ١٩٨٦ .

(٣٥) نظر فواز طوقان ، قصر الحائر ، عمان ١٩٧٩ ، ص ١١٥ .
J. Sauvaget, Op. Cit., P. I - 52.

مراجع البحث

حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، أربعة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٤ .
دانيال شلومبرجه ، قصر الحير الغربي (مترجم) ، بيروت ١٩٤٥ .
عفيف بهنس ، الفن الاسلامي والعربي في بداية تكونه ، دمشق ١٩٨٢ .
فريد شافعي ، العمارة العربية الاسلامية — ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، الرياض ١٩٨٢ .
فواز طوقان ، قصر الحائر ، عمان ١٩٧٩ .
كمال الدين سامح ، العمارة في صدر الاسلام ، القاهرة ١٩٨٢ .
لانكستر هاردنج ، آثار الأردن ، تعريب سليمان موسى ، الطبعة الثانية عمان ، ١٩٧١ .
محمود أبراهيم حسين ، نظرية جديدة في تفسير نشأة القصور الأموية ، الرياض ١٩٨٦ .
محمود العايدي ، الآثار الاسلامية في فلسطين والأردن ، عمان ١٩٧٣ .

A. Musil, Kuseir Amra, Wien, 1907.
D. Schlumberger, Les fouilles de Qasr el - Heir el - Gharbi, Syria 20,1939
E. Herzfeld, Die Genesis der islamischen kunst und das Mshatta-Problem, Der Islam (1910).
F. Altheim und Ruth Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, I Berlin, 1964.
F. Schachermayer, Alexander der Grohe. Das problem seiner Persönlich-keit und seines Wirkens, Wien 1973.
Heinz Gaube, Die Syrischen Wustenschlösser, Wiesbaden 1979.
K.A.G. Creswell, Early Muslim Architecture I Umayyades, Oxford 1969
S. Merrill, East of Jordan, London, 1881.
T. Nöledke, Gesichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden Leiden 1878.

شكل (١)

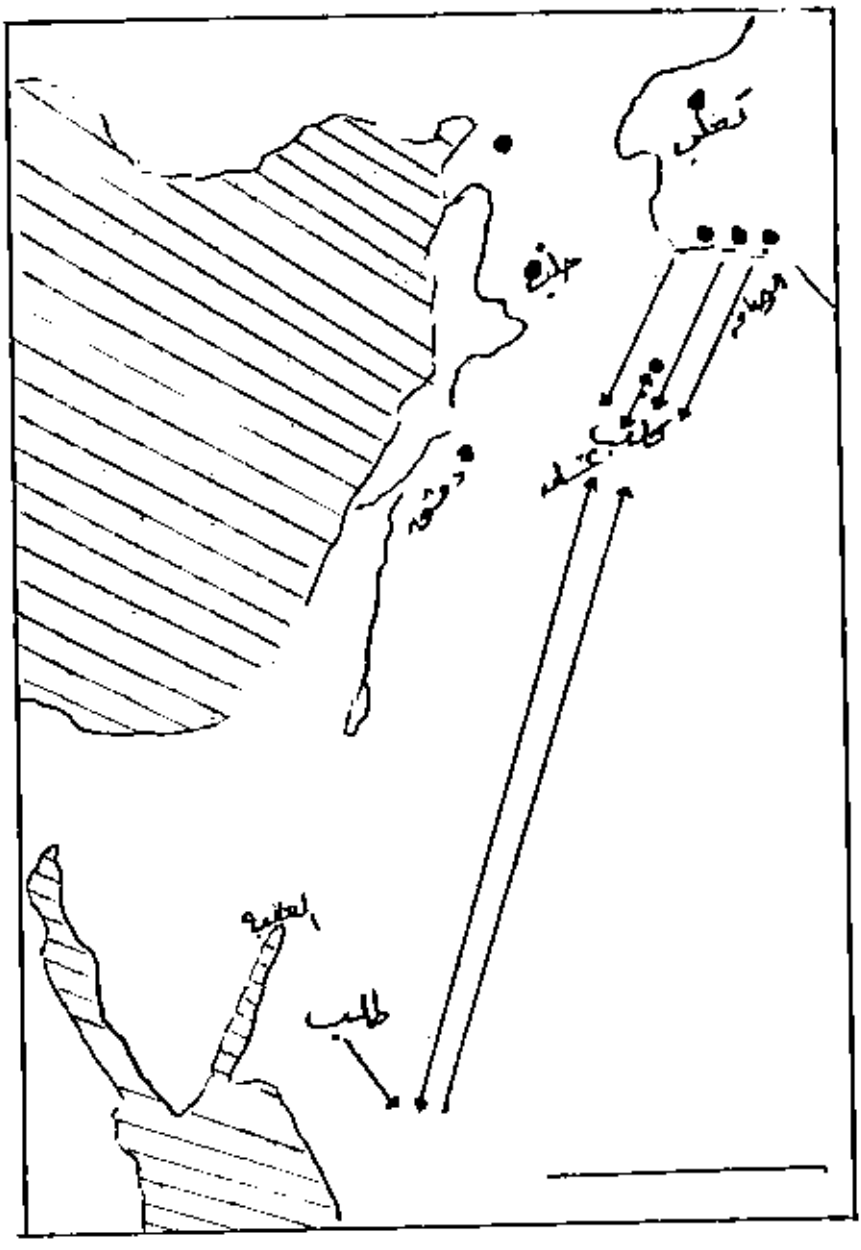

خريطة تبين القبائل الرئيسية في بلاد الشام

شكل (٢)

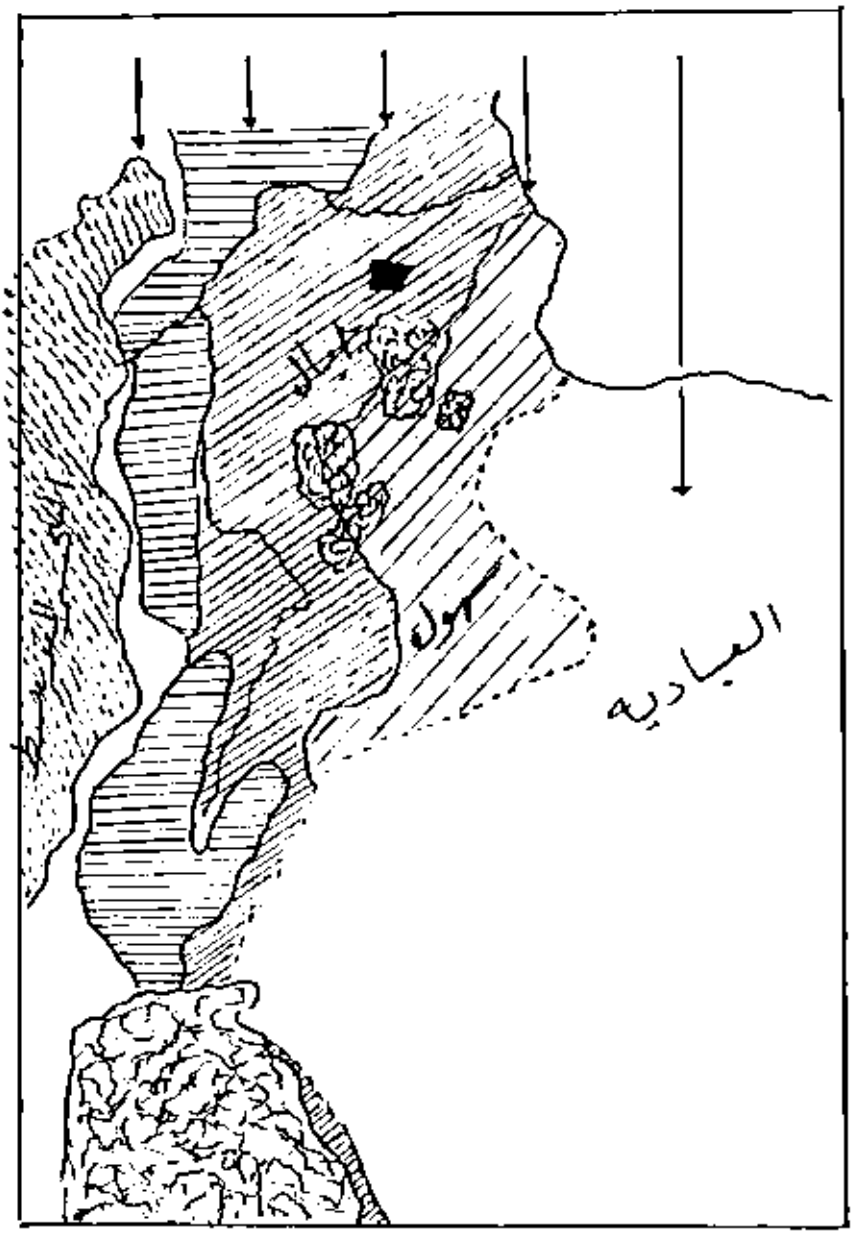

خريطة تبين المناطق الجغرافية الأربع الرئيسية

شكل (٣)

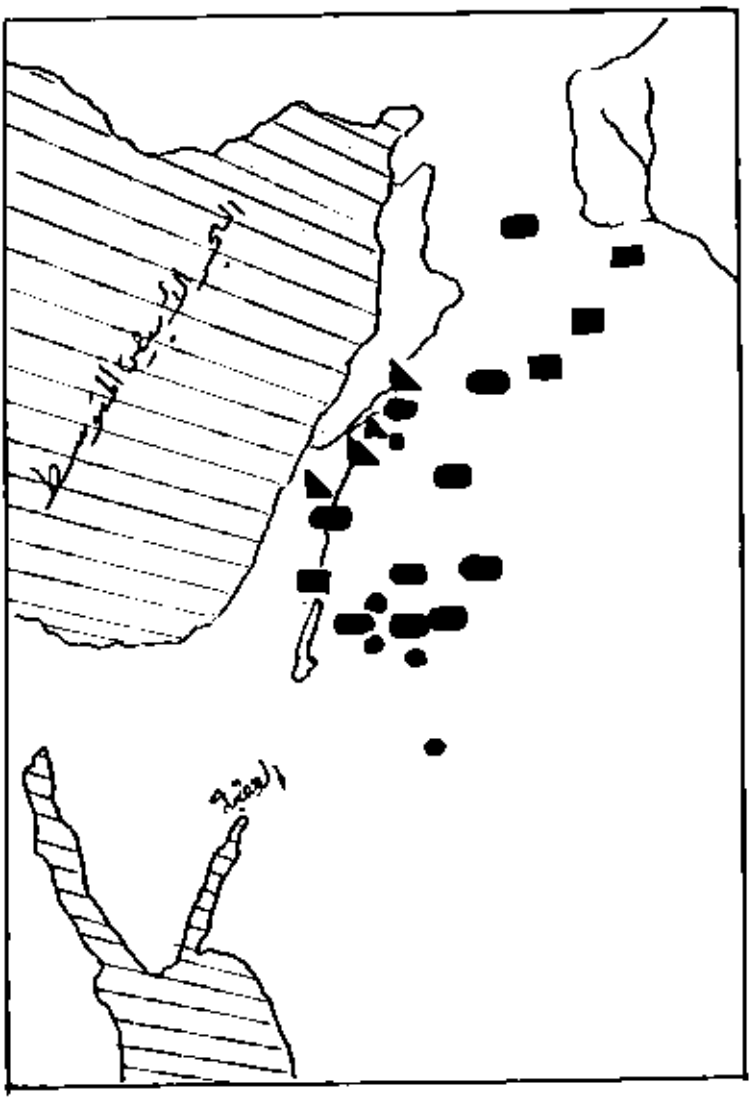

خريطة تبين مواقع الأبنية الصحراوية في بلاد الشام

- منشآت عبد الملك
- منشآت الوليد الأول
- منشآت هشام
- منشآت متأخرة

شکل (٤)

شكل (٥)

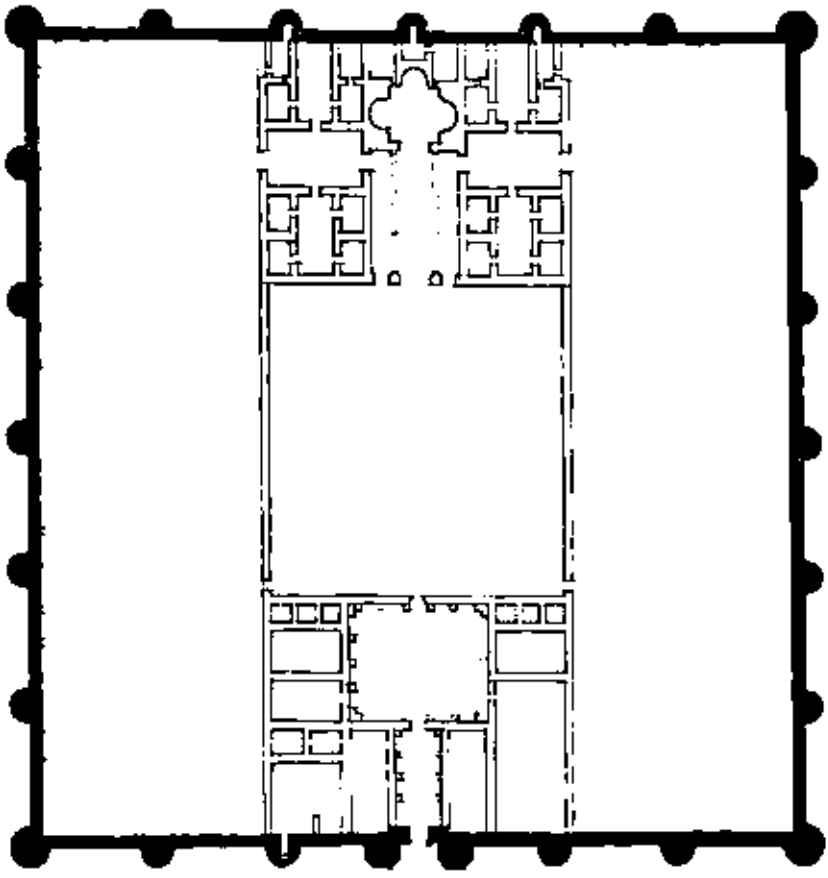

قصر المشتى

شكل (٦)

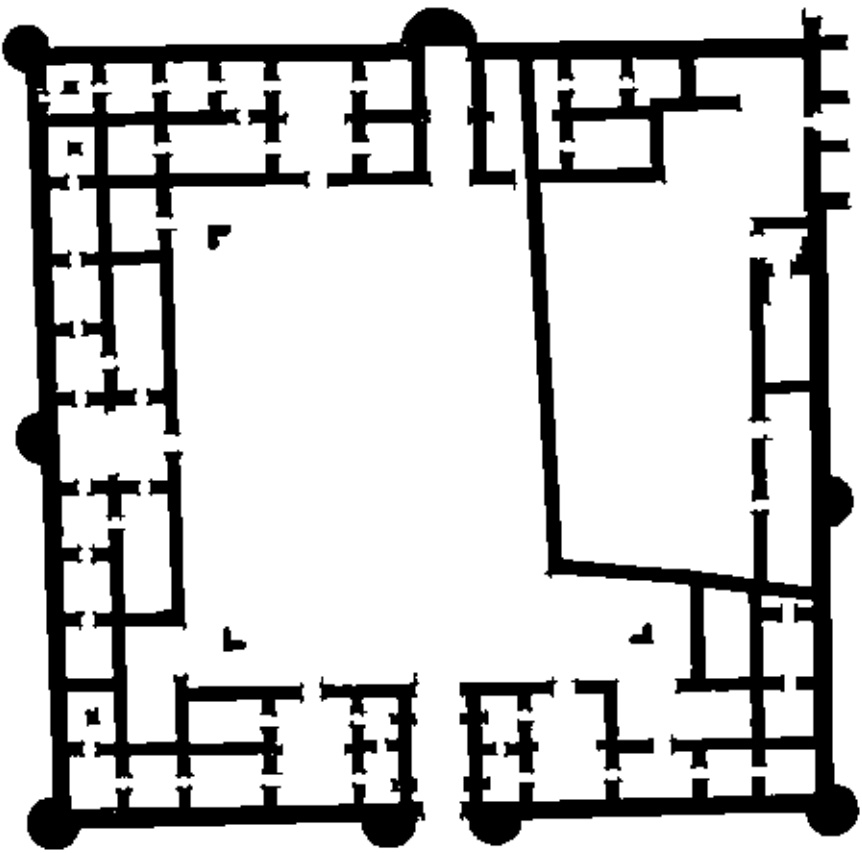

قصر الحير الغربى

شكل (٧)

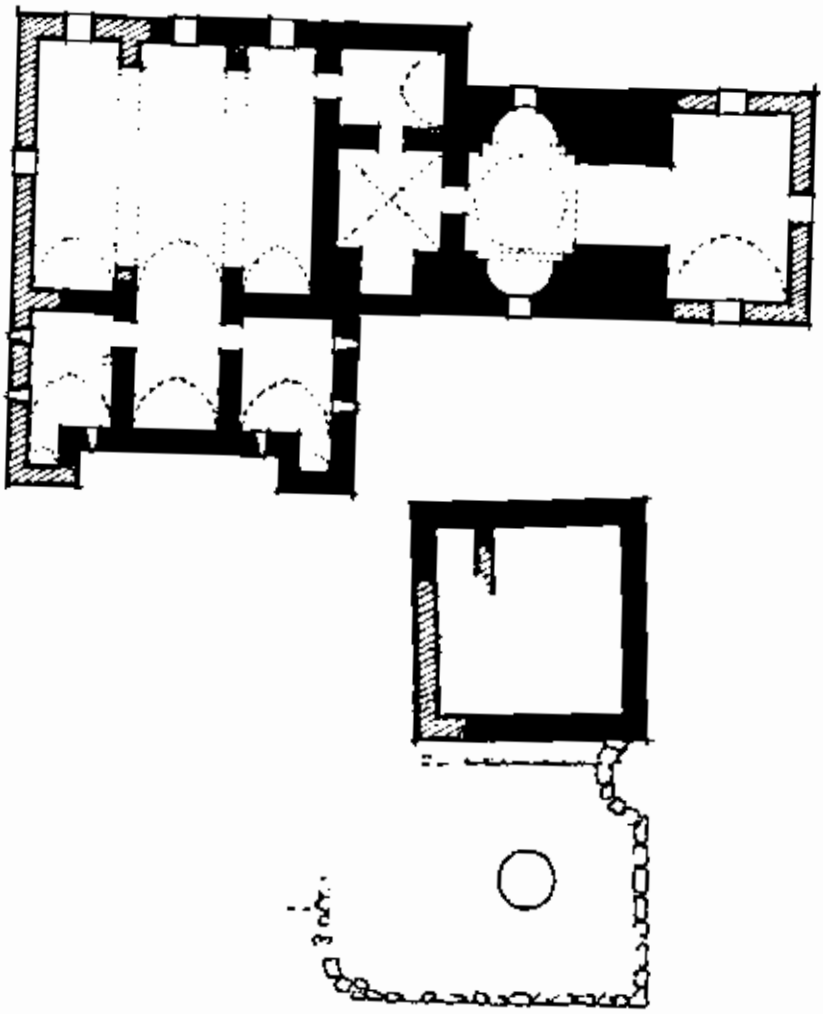

حمام الصراخ

شکل (۸)

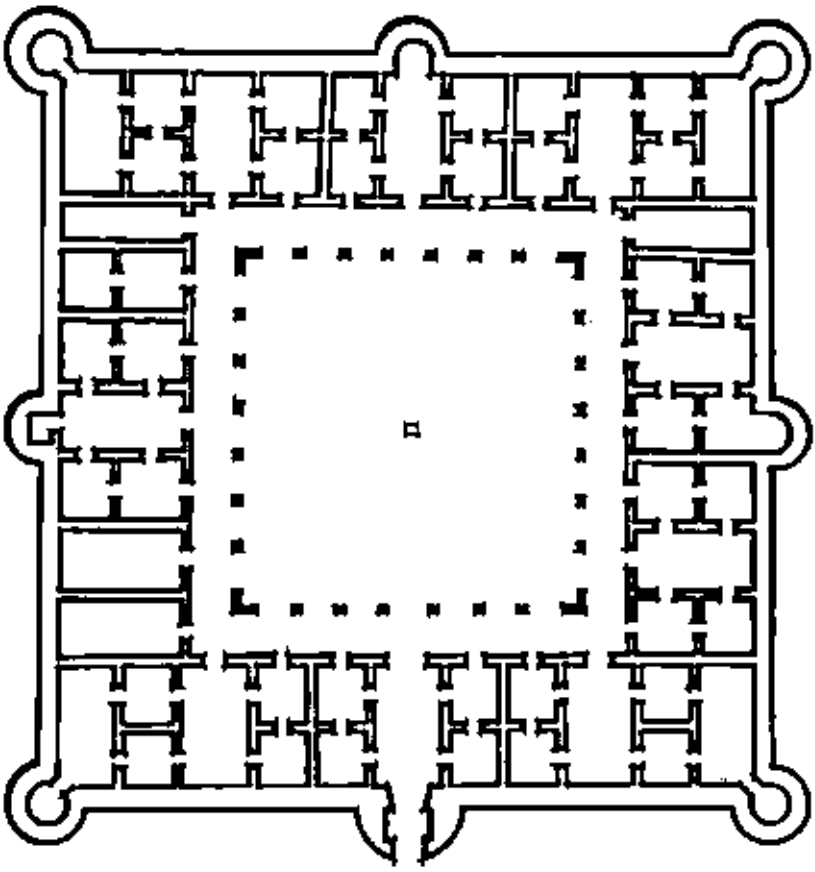

قصر ابیض

شكل (٩)

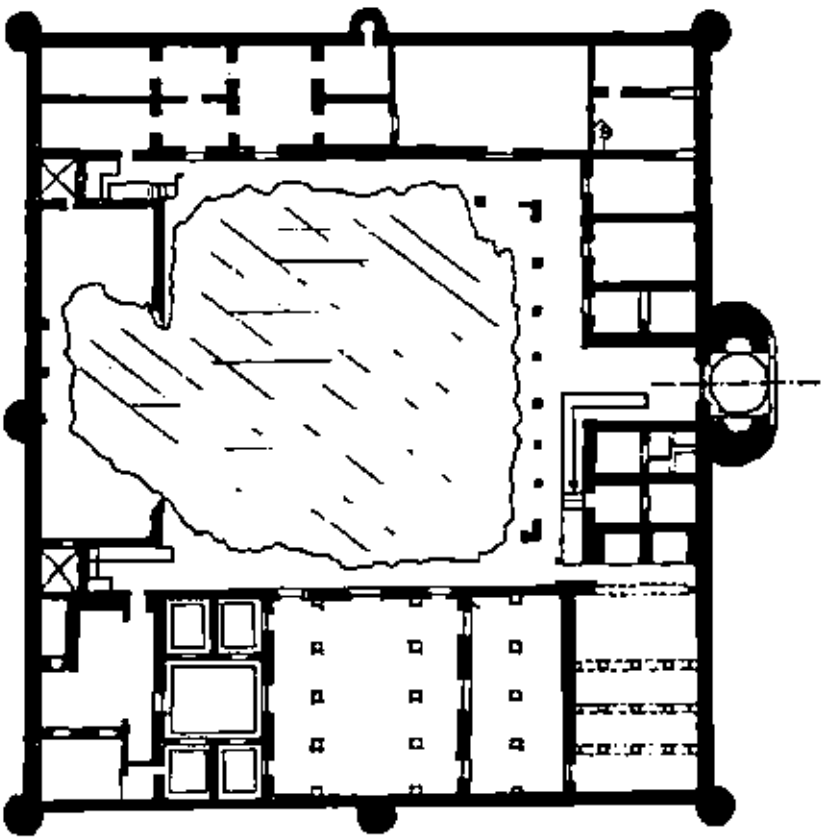

قصر المنية

شكل (١٠)

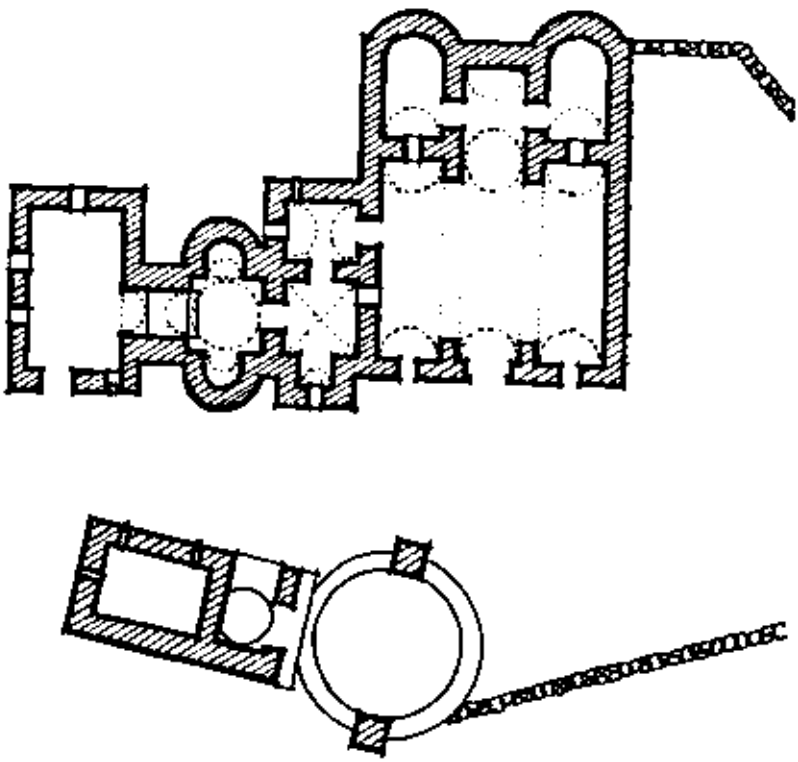

قصير عمره